

أسلوب المحاورة عند الزجاجي في كتابه الإيضاح في علل النحو

د/ حاجي زوليخة (*)

ملخص المقال : في القرن الرابع الهجري سطع نجم العالم الإمام أبي القاسم الزجاجي، أحد أعلام المدرسة البغدادية، الذي نبغ في النحو وتقدّم به شوطاً كبيراً من خلال ما خلفه لنا من مؤلفات نستمدّ منها أصول وقواعد لغتنا اليوم. ومن هذه المؤلفات "الإيضاح في علل النحو" الذي يعتبر -بحق- من أهم المصادر المعوّل عليها في الدرس النحوي اليوم، والذي - إن كنّا لا نغالي- أول كتاب مفصل فيه الحديث عن العلة.

مقدمة :

يعتبر النحو - في أي لغة- الأساس الذي تبني عليه صرحها، فهو العمود الفقري لها، فهي لا تستقيم إلا به، وبدونه يكون الكلام مجرد ركام من الكلم لا جدوى، ولا فائدة منه. لذلك أولاه الدارسون أهمية خاصة، وتفرّغ له العباقرة من أسلافنا يجمعون قواعد ويثبتون أصوله، ويرفعون بنيانه شامخاً عالياً في إخلاص وإيمان . وعند الحديث عن جهود هؤلاء العلماء يطالعنا

(*) أستاذة مساعدة قسم اللغة والأدب العربي - جامعة حسبيّة بن بوعلّي الشلف - الجزائر .

العالم الجليل أبو القاسم الزجاجي أحد أعلام القرن الرابع هجري، وأحد رواد المدرسة البغدادية.

اهتم الزجاجي بعلوم اللغة والأدب، وعني كثيرا بالتأليف فيهما، غير أنّ مؤلفاته لم يصلنا منها إلا القليل، ولم يطبع إلا أقله، أما الباقي فما زال مخطوطاً ينتظر منا الجهد والمثابرة من أجل إخراجه إلى النور حتى نفيد منه في دراستنا.

غالباً ما يقترن اسم الزجاجي بالجمل^(١) والإيضاح في علل النحو، فقد حظي هذان المصنفان برواج بين أوساط المتعلمين آنذاك، فلعله من المفيد أن نقف وقفة قصيرة مع الزجاجي من خلال كتابه "الإيضاح" لنحاول أن نكشف للقارئ عن إحدى الطرق التي اعتمدها المؤلف في عرض القضايا النحوية والتي تتمثل في طريقة المحاورة. ومن هنا نتساءل من هم الذين خصّهم الزجاجي بالمحاورة؟ هل كان يحاور أشخاصاً معينين؟ ما الفائدة من هذه المحاورات؟

هذا ما سوف تجيب عليه هذه الصفحات.

جمع القرن الرابع للهجرة ثمرة جهود علماء القرنين الثاني والثالث هجري أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)^(٢)، وسيبويه (ت ١٨٠هـ)^(٣)، والمبرد (ت ١٨٦هـ)^(٤) من مدرسة البصرة، والكسائي (ت ١٨٩هـ)^(٥)، والفراء (ت ٢٠٧هـ)^(٦) وثلعب (ت ٢٩١هـ)^(٧) من مدرسة الكوفة ووضعها بين يدي رجالاته.

وبذلك نشأ جيل جديد من النحاة يحمل آراء هاتين المدرستين، وكان من هذا الجيل من يغلب عليه الميل إلى الآراء البصرية، ومنهم من يجنح إلى الآراء الكوفية، ومنهم من أخذ من هذا وذاك، واختار من آراء المذهبين^(٨).

أسلوب المحاضرة عند الزجاجي في كتابه الإيضاح في علل النحو فكر وإبداع

والزجاجي واحد من هؤلاء الذين أخذوا من المدرستين، غير أنه كان شديد الميل إلى البصريين^(٩).

من هو الزجاجي؟

الزجاجي^(١٠) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق. ولد بنهاوند جنوب همدان ثم انتقل إلى بغداد لينهل من علمائها، وهناك التقى بأستاذه إبراهيم بن السري (الزجاج ت ٣١٠هـ)، فلزمته حتى نسب إليه. رحل إلى الشام فأقام بطلب مدة ثم تركها إلى دمشق واتخذها دار مقام له، وانكب على تصانيفه فيها وإملاءاته للطلاب، توفي بطبرية سنة ٣٢٣٧هـ في خلافة المطيع.

كان الزجاجي مولعا بالعلم فأخذ عن الزجاجي (ت ٣١٠هـ)، وابن كيسان (ت ٢٩٩هـ)، وابن شقير (ت ٣١٥هـ) وابن السراج (ت ٣١٦هـ) وابن الخياط (ت ٣٢٠هـ) وغيرهم.

من مؤلفاته:

الجمال، الإيضاح في علل النحو، مجالس العلماء، شرح خطبة أدب الكاتب لابن قتيبة، الأمالي، مختصر الزاهر، ومسائل متفرقة في الأشباه والنظائر وغيرها.

الإيضاح في علل النحو:

يعتبر كتاب "الإيضاح في علل النحو" من المؤلفات الهامة في الدرس النحوي خصّه صاحبه بالحديث عن العلل النحوية. فنحن اليوم لم نطلع على مؤلف مخصص فقط للعلة إلا ما جاء من خلال كتاب الخصائص لابن جني،

أو كتاب المختار في علل النحو^(١١) لابن كيسان، لكن لم يصلنا منه شيء، يقول الزجاجي: «وهذا الكتاب أنشأناه في علل النحو خاصة والاحتجاج له وذكر أسرارهِ وكشف المستغلق من لطائفه وغوامضه، ولم أر كتاباً إلى هذه الغاية مفرداً في علل النحو مستوعباً فيه جميعها»^(١٢).

"الإيضاح في علل النحو" كتاب صغير موجز يتألف من مقدمة وقسمين: قسم للعلل^(١٣)، وقسم خاص بمسائل متفرقة^(١٤) ألحقها الزجاجي في آخر الكتاب.

ألّف الزجاجي مصنفه هذا من أجل تقريب النحو من الفهم وتيسير الوقوف على أسرارهِ يقول: «اعلم أنّ العلل التي أودعها هذا الكتاب والاحتجاجات هي على ثلاث أضرب، منها ما كان مسطراً في كتب البصريين والكوفيين بألفاظ مستغلفة صعبة، فعبرت عنها بألفاظ قريبة من فهم الناظرين في هذا الكتاب، فهدبناها وسهلت مراتبها والوقوف عليها»^(١٥).

يبين الزجاجي من خلال مؤلفه هذا قيمة النحو وضرورة اتقانه ويدافع عن الإعراب كثيراً فقد أفرّد لذلك باب أسماه "الفائدة في تعلم النحو"^(١٦).

يسلّط الزجاجي من خلال الإيضاح- الضوء على تلك الصلة المبكرة بين النحو وغيره من العلوم من فقه وعلوم الكلام، ومنطق وفلسفة^(١٧). ويكون بذلك سابقاً للأبناري في إنصافه وللعكبري في تبينه^(١٨).

اعتمد الزجاجي في الإيضاح على الاختصار، فهو يبتعد عن الإكثار والحشو الذي يبعده عن لب الموضوع، فقد كان يختار الأصوب ولا يذكر إلا ما يراه العلة الشافية من دون الإطالة، يقول فيه: «ثم نجعل جميع ما نذكره في هذا الكتاب منتقى مهذباً غير مائلين فيه إلى التطويل بكثرة الروايات،

أسلوب المحاوره عند الزجاجي فكر وإبداع

والاختلاف والأسانيد وذكر القائلين، وإذا كان لباب من الأبواب علل قد تكلم عليها العلماء، لم نذكر إلا أجودها وأسدّها»^(١٩).

يقوم أسلوب الكتاب على الجدال وعرض البراهين المختلفة لثنى آراء النحويين وكثيرا ما يتخذ صاحبه طريقة السؤال والجواب.

أسلوب المحاوره:

المعنى اللغوي والاصطلاحي للمحاوره:

المحاوره في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ المحاوره بهذه الصيغه في القرآن الكريم بل ورد في صورة الفعل الثلاثي والرباعي: يحور، يحاور، حاور.

تكررت كلمه المحاوره التي أصلها (ح.و.ر) في كثير من الآيات الكريمه منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(٢٠).

وقال أيضا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٢١).

وقال أيضا: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(٢٢).

المحاوره في المعاجم العربيه:

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) الحوار هو: (الحاء، الواو، الراء) ثلاثة أصول أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورا. ويعود

أصل كلمة الحوار في (الحوار) وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: حار بعدما كار (٢٣).

قال الزمخشري (ت ٥٣٩هـ): «حاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار، وكلمته فما رد علي محورة» (٢٤).

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): «يقال كلمته فما رجع إلى حوارٍ وحُوارًا ومُحاورَةً وحويرا ومحورة بضم الحاء أي جوابا، وأحار عليه: جاوبه، المحاورة: المجاورة، واستحاره أي استنطقه» (٢٥).

اصطلاحا:

الحوار: «نوع من الحديث لكنه يدور بين طرفين وهو يكون ضمنياً أو مباشراً» (٢٦).

الحوار أيضاً: أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر عن طريق السؤال والجواب، بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين، وقد يصلان إلى نتيجة وقد لا يفتق أحدهما الآخر ولكن السامع يأخذ العبرة ويكون لنفسه موقفاً (٢٧).

كثيرة هي التعاريف إلى تناولت هذه اللفظة وعلى العموم فهي تشير في معظمها إلى أن المحاورة هي مخادثة تقوم بين شخصين أو أكثر حول موضوع معين، وتكون عن طريق السؤال والجواب غالباً.

اعتمد الزجاجي في كتابه الإيضاح على أسلوب المحاورة في عرض المسائل النحوية بهدف إبراز معالم الدرس النحوي واستيعاب قضاياها وتبسيطه للمتعلمين، وهي طريقة إجرائية هادفة تقوم على السؤال والجواب، نحو: «إذا سأل سائل، فالجواب كذا وكذا لقوله كذا»، أو «قال قائل... فقيل له».

أسلوب المحاوره عند الزجاجي فكر وإبداع

وفي بعض الأحيان لا يجد الزجاجي سائلا يسأله فيتخله تخيلا ويلقي السؤال على نفسه ويتولى الإجابة عنه. وفيما يلي ندرج بعض محاوراته اللطيفة:

جرى بين الزجاجي وابن الأنباري محاوره حول المصدر: «قلت له مرة: ما المصدر في كلام العرب من طريق اللغة؟ فقال: المصدر المكان الذي يصدر عنه، كقولنا مصدر إلّا بل وما أشبهه، ثم نقول مصدر الأمر والرأي تشبيها. والمصدر أيضا هو الذي يسميه النحويون مصدرا، كقولنا ضرب زيد ضربا ومضربا وقام قياما ومقاما وأشبهه، والمفعول يكون مكانا ومصدرا»^(٢٨).

وينقل لنا سؤال ألقى على البصريين في فعل الحال: «قال لهم: هلّا كان للفعل الحال لفظ ينفرد به من المستقبل، لا يشركه فيه غيره ليعرف بلفظه أنّه للحال، كما كان للماضي لفظ يعرف به أنّه ماضٍ؟

الجواب: قالوا: لمّا ضارع الفعل المستقبل الأسماء بوقوعه موقعها، وسائر وجوه المضارعة المشهورة التي تذكر في مواضعها مسطرة في كتبهم قوى فأعرب وجعل بلفظ واحد يقع بمعنيين حملا له على شبه الأسماء، كما أنّ من الأسماء ما يقع بلفظ واحد لمعان كثيرة، من ذلك العين التي يبصر بها، وعين الماء، وعين الميزان... كذلك جعل الفعل المستقبل بلفظ واحد يقع لمعنيين ليكون ملحقا بالأسماء حين ضارعها، والماضي لم يضارع الأسماء فتكون له قوتها، فبقي على حاله»^(٢٩).

يقول الزجاجي في باب ذكر العلة في تسمية هذا النوع من العلم نحواً: «إن سأل سائل فقال: ما السبب في تسمية هذا النوع من العلم نحواً ولم

حكم به؟ قيل له: السبب في ذلك ما حكى عن أبي الأسود الدؤلي أنه لما سمع كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب، أنكر ما يأتون به من اللحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم. وأنه ابنة له قالت له ذات يوم: يا أبت ما أشد الحر، فقال لها: الرمضاء في الهاجرة يا بُنيّة، فقالت له: لم أسألك عن هذا، إنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها: فقولني إذا ما أشد الحر، ثم قال: إنا لله فسدت السنة أولادنا، وهم أن يضع كتابا يجمع فيه أصول العربي، ثم قال: انحوا هذا النحو: أي اقصوه، والنحو القصد، فسمي لذلك نحوا» (٣٠).

ويقول أيضا في باب ذكر الفائدة في تعلم النحو: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا الْفَائِدَةُ فِي تَعَلُّمِ النُّحُو، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَتَكَلَّمُونَ عَلَى سَجِيَّتِهِمْ بِغَيْرِ إِعْرَابٍ، وَلَا مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ، فَيَفْهَمُونَ، وَيُفْهَمُونَ غَيْرَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ أَنَّ يُقَالُ لَهُ: الْفَائِدَةُ فِيهِ الْوَصُولُ إِلَى التَّكَلُّمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى الْحَقِيقَةِ صَوَابًا غَيْرِ مُبَدَّلٍ وَلَا مُغَيَّرٍ، وَتَقْوِيمُ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا الْمَعْتَمَدُ، وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِقَامَةُ مَعَانِيهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ» (٣١).

يقول الزجاجي في معرض الحديث عن التنثية: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَخْبَرُونَا عَنِ التَّنْثِيَةِ مَا مَعْنَاهَا؟ قُلْنَا لَهُ: هُوَ ضَمُّ اسْمٍ إِلَى اسْمٍ مِثْلُهُ فِي اللَّفْظِ، فَيُخْتَصَرُ ذَلِكَ بِأَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى لَفْظِ أَحَدِهِمَا، إِذْ كَانَ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ، وَيُؤْتَى بِعِلْمِ التَّنْثِيَةِ آخَرًا، فَيَعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّهُمَا قَدْ اجْتَمَعَا وَصَارَا بِمَنْزِلَةِ شَيْءٍ وَاحِدٍ، إِلَّا أَنَّ الْإِخْبَارَ عَنْهُمَا يَقَعُ عَلَى الْمَعْنَى، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: رَجُلٌ وَرَجُلٌ ثُمَّ تَقُولُ: رَجُلَانِ. وَغُلَامٌ وَغُلَامٌ ثُمَّ تَقُولُ: غُلَامَانِ. فَيَكُونُ ذَلِكَ أَخْصَرَ مِنْ تَكْرِيرِ الْأَسْمَاءِ وَلِذَلِكَ لَمْ تَجْزِ تَنْثِيَةُ اسْمَيْنِ مُخْتَلَفِي اللَّفْظِ كَقَوْلِنَا، زَيْدٌ وَبَكْرٌ وَعَمْرُو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ» (٣٢).

يقول الزجاجي أيضا في باب القول في الإعراب أهو حركة أم حرف: «فإن قال قائل: فأين يكون الإعراب سكونا وحذفا وحرفا؟ قيل له: يكون سكونا في الأفعال المضارعة الساملة اللامات، نحو: لم يضرب ولم يذهب، وحذف في هذه الأفعال إذا كانت معتلة اللامات، نحو: لم يقض ولم يخش، ولكل شيء من هذا علة تذكر في موضعها إن شاء الله» (٣٣).

من خلال هذه المحاورات -التي مرت مغنا- يتضح لنا أن الزجاجي قد تأثر بمهنة التدريس التي أملت عليه أن ينهج هذه الطريقة، حيث تظهر طبيعته شيئا ومدرسا من خلال القضايا التي يثيرها في الإيضاح، والأسئلة التي يطرحها، ثم طريقته في الإجابة عليها، فلا عجب في ذلك فهو عالم تصدر حلقات التدريس والتلقين مدة من الزمن.

الإحالات والهوامش :

- ١ - الجمل: كتاب مختصر في النحو، تحقيق بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٢٦، وتحقيق: علي توفيق الحمد، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٢ - طبقات النحويين واللغويين للزبيدي الأندلسي، دار المعارف، مصر، (د.ط، د.ت)، ص: ٤٧.
- ٣ - المصدر نفسه، ص: ٦٦.
- ٤ - المصدر نفسه، ص: ١٠١.
- ٥ - المصدر نفسه، ص: ١٢٧.
- ٦ - المصدر نفسه، ص: ١٣١.
- ٧ - المصدر نفسه، ص: ١٤٧.
- ٨ - ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٦٨م، ص: ٢٤٥.
- ٩ - الفهرست، ابن النديم، المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ، د.ط، ص: ٦٠.
- ١٠ - ينظر: ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي، ج ٠٢، ص: ٢٩٧، النجوم الزاهرة، لابن ثغري بردي ج ٠٣، ص: ٣٠٢. وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٠١، ص: ٣٨٩، شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ج ٠٢، ص: ٣٥٧، إنباه الرواة، ج ٠٢، ص: ١٦٠.
- والفهرست، لابن النديم، ص: ٦٠.
- ١١ - ينظر: المدارس النحوية، خديجة الحديثي، دار الأمل، إربد، الأردن، ط ٠٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص: ٢٤٨.
- ١٢ - الإيضاح في علل النحو، ابو القاسم الزجاجي، تح: د.مازن المبارك، دار النفائس، ط ٠٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م، ص: ٣٨.
- ١٣ - المصدر نفسه، ص: ٢٧-١٣٤.
- ١٤ - المصدر نفسه، ص: ١٣٥-١٤٢.
- ١٥ - المصدر نفسه، ص: ٧٨.
- ١٦ - المصدر نفسه، ص: ٩٥-٩٦.

أسلوب المحاوراة عند الزجاجي فكر وإبداع في كتابه الإيضاح في علل النحو

- ١٧ - ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص: ٢٥٣-٢٥٤.
- ١٨ - ينظر: الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص: ٤١-٥٦-٦٧-٧٢-٧٧-٨٣-٩٧-١٠٠-١٠٢-١٣٠.
- ١٩ - المصدر نفسه، ص: ٣٩.
- ٢٠ - سورة الإنشقاق، الآية: ١٤.
- ٢١ - سورة المجادلة، الآية: ٠١.
- ٢٢ - سورة الكهف، الآية: ٣٧.
- ٢٣ - معجم المقاييس في اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ، ص: ٢٨٧.
- ٢٤ - ينظر: مقياس اللغة، زكريا أبو الحسين أحمد، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر بيروت، ١٩٧٩م، ج ٠٢، ص: ١١٥.
- ٢٥ - لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط ٠١، ج ٠٤، ص: ٢١٨.
- ٢٦ - أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، (د.ط، د.ت)، ص: ٩٨.
- ٢٧ - أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، دمشق، ط ٠٥، ١٩٩٥م، ص: ٢٠٦.
- ٢٨ - الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، ص: ٦١-٦٢.
- ٢٩ - المصدر نفسه، ص: ٨٧-٨٨.
- ٣٠ - المصدر نفسه، ص: ٨٩.
- ٣١ - المصدر نفسه، ص: ٩٥.
- ٣٢ - المصدر نفسه، ص: ١٢١.
- ٣٣ - المصدر نفسه، ص: ٧٢.